عودا إلى «المدارس النحوية»

كنت قد نشرت في العدد المزدوج (٣١ ـ ٣٢) من مجلة مجمع اللغة العربية الأردني بحثاً وسمته بـ «ألنا مدارس نحوية»(*) بسطت فيه بأسلوب من الاستفهام أن القول بالمدارس شيء بولغ فيه، وأن النحو القديم نشأ للحاجة إليه ثم اتسع أمره فاجتهد فيه جماعة من متقدمي النحويين. ثم خلفهم جماعة في الكوفة كانت لها آراء في فروع المسائل وليس في الأصول وسُموا بالكوفيين، حتى إذا اشتهرت هذه الشهرة صار الدارسون يلقبون المتقدمين بـ «البصريين». ومن هنا نشأ القول بـ «المذهبين»، والقول بمن خلط بين «المذهبين».

وقد أنكرت أن يكون مدرستان هما البصرية والكوفية، فالنحو القديم واحد وإن كان هناك من شيء فاختلاف اللاحقين ممن دعوا بالكوفيين عن المتقدمين البصريين بمسائل تتصل كما أشرت بالفروع وليس بالأصول، وتتصل بالمنهج ورأيهم في السماع والقياس، وبمادة المسموع والمقيس. على أن هذا الاختلاف ليس مقصوراً على أصحاب القديم البصري ولا على أصحاب الجديد الكوفي، بل نجد من البصريين من أخذ برأي الكوفيين في جملة مسائل، كما وجدنا الكسائي والفراء قد أخذ برأي البصريين في مسائل معروفة كما وجدنا العكس.

ثم إن الكوفيين قد خالفوا البصريين فيما خالفوهم كما أشرنا، ولم يكن لهم من مواد النحو ما يمكن أن يؤلف مادة متكاملةً نحوية تأتي على

(*) جعلت هذا البحث المشار إليه خاتمة هذا الكتاب.